مالك بن الريب بن حوط بن قرط المازني التميمي، شاعر عربي عاش في بداية الدولة الأموية وتوفي سنة 60 هجرية 680 ميلادية. حين تدخل إلى حياة هذا الشاعر، والذي لم يحفظ التاريخ من شعره غير تلك القصيدة التي سنتناول حكايتها اليوم. لن تجد في هذه الحياة ما يمهد لميلاد شاعر بحجم تلك القصيدة المقصودة. فمالك بن الريب رجل عادي. وشجاعة المقاتل الذي لا يخاف الموت. كانت الدولة العربية الإسلامية تتكون من خلال الفتوحات التي بدأت في الخلافة الراشدة، واستمرت في عهد بني أمية. وكان يمكن لمالك بن الريب لو أتيحت له فرصة التكوين العقائدي أن يشارك كمقاتل شرس في تلك الفتوحات. ولكنه أمام الواقع المتمثل بزوجة صابرة محبة، وابنة محتاجة إلى رعاية أبيها وعنايته، أمام هذا الواقع لم يجد مالك بن الريب من وسيلة لتأمين لقمة العيش إلا أن يصبح قاطع طريق، يمارس من خلال قطع الطرق السرقة بالإكراه. شكل مالك بن الريب عصابته الخاصة والتي لم يزد عدد أفرادها عن أصابع اليد الواحدة. ولكن كلاً منهم كانت له شهرته التي وصلت إلى أولي الأمر. فحاولوا القضاء على تلك العصابة التي روعت الناس فلم يستطيعوا. كان شظاظ الضبي واحداً من أهم أفراد تلك العصابة وكان يضرب به المثل فيقال: ألص من شظاظ. وكان أبو حردبة بن أثالة بن مازن أيضاً ركناً من أركان هذه العصابة. كذلك كان غويث بن كعب بن مالك بن حنظلة. ولكن مالك بن الريب كان يختلف عن هؤلاء بوسامته وحسن وجهه ومظهره الباهر كفارس من فرسان العرب وشجعانها. ولقد عمل مروان بن الحكم عندما كان عاملاً على المدينة على القبض على تلك العصابة، ولكن مالك بن الريب تمكن من قتل حارسه والهرب، وتحرير باقي أفراد العصابة. عندما قرأت هذه التفاصيل شعرت وكأنني أشاهد فيلماً عن المافيا. وكيف تكون متماسكة لا تتخلى عن عضو من أعضائها مهما كانت العواقب. فالسيوف والخناجر بدل المسدسات والرشاشات. ويتغير ميدان عمل عصابة مالك بن الريب من الجزيرة العربية إلى خارج حدود العراق، وفي الطريق المؤدية إلى خراسان، وبينما كان سعيد بن عثمان بن عفان في طريقه من المدينة إلى البصرة إلى خراسان التي ولاه عليها معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين، تم ذلك اللقاء التاريخي بين مالك بن الريب وسعيد بن عثمان. ودار ذلك الحوار المسجل في كثير من المراجع التاريخية: ? ويحك يا مالك. ما الذي يدعوك إلى هذا العمل الذي لا يرضي الله ولا يتفق مع روح الإسلام؟ إنك تسيء إلى نفسك وتفسدها بقطع الطريق كما بلغني عنك وعن عصابتك. ـ وماذا تريدني أن أعمل؟ ? رجل مثلك حسن الوجه، جيد الهندام وفارس لا يشق له غبار. كيف تطيق أن تتحول إلى لص وقاطع طريق؟ ـ الذي دعاني إلى ذلك هو العجز عن المعالي. أنا يا ابن عثمان لا أملك شيئاً ولدي عائلة كبيرة. ولقد سمعت أحد الصحابة يقول: أعجب من رجل لا يملك قوت يومه وكيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه؟ ? اسمع يا مالك. لم تفت الفرصة بعد. بإمكانك أن تصلح نفسك وتغير طريقك. وتضع نفسك مع الفرسان المجاهدين في سبيل الله. ـ كيف أيها القائد العظيم وأنا قاطع طريق؟ ? تب إلى الله وجاهد في سبيله. ? إن الله غفور رحيم. ـ وأنا تبت إلى الله ومستعد للجهاد في سبيله من هذه اللحظة. ? وأنا أصحبك معي إلى خراسان. وسنقوم بفتح بعض البلاد، ـ الحمد لله الذي هداني قبل أن ألقى نار جهنم. رافق مالك بن الريب سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان وأبلى مع جيش المسلمين بلاءً حسناً، وشهد فتح سمرقند وتحول من ذلك الخارج عن الدين والمجتمع إلى مجاهد فارس يتحلى بقيم الإسلام وفضائله إلى درجة تنسّك فيها وقام الليل مصلياً مستغفراً. وأدرك سعيد بن عثمان أنه لم يكسب مجاهداً في صفوف المسلمين فحسب، بل حرم جبهة الشيطان من أهم مقاتليها. وعندما هدأت الأمور وتمت الفتوح، رجع سعيد بن عثمان بن عفان إلى المدينة، وفي وادٍ يقال له وادي الغضى. فمن رواية تقول: إن أفعى لدغته وبدأ سمها يسري في دمه ويموت تدريجياً. إلى رواية أخرى تقول إنه مرض مرضاً شديداً أدرك معه أنه ميت لا محالة. وسواء لدغته أفعى أم مرض، فإن المؤرخين يتفقون على أن القصيدة التي نظمها وهو يموت في رثاء نفسه كات من فرائد الشعر، لا ترقى إليها أية قصيدة رثاء أخرى. ترك سعيد بن عثمان مع مالك بن الريب رجلين ليقوما بخدمته وهو في محنته المرضية. أشار إليهما مالك في قصيدته الرائعة. حاول الرجلان أن يرفعا من روحه المعنوية، ولولا تذكره لمن يحبهم ويحبونه لما بكى نفسه ولا منح تلك القصيدة ثوب الحزن والأسى الذي لبسته أمام كل من قرأها أو اطلع عليها. ? ما الذي يحزنك يا مالك؟ قالها ذلك الصاحب الذي تولى تدوين أبيات قصيدة مالك. ـ يحزنني أيها الصاحب تذكر ابنتي التي تعلقت بثوبي باكية طالبة ألا أخرج. ـ خشيت أن يطول سفري أو يحول الموت دون لقائنا. ? لعلك تلقاها يا مالك. ـ أنا أحس بدبيب المنية. ـ والموت قد يكون رحمة. ? ولكن ماذا قلت لابنتك عندما تركتها؟ أغمض مالك بن الريب عينيه مستذكراً تلك الأبيات التي نظمها بعد خروجه من بيته هارباً من بكاء ابنته وتمتم: ولقد قلت لابنتي وهي تبكي بدخيل الهموم قلباً كئيباً استكنّي فقد حززت بالدمع قلبي طالما حز دمعكنَّ قلوبا فعسى الله أن يدافع عني ريب ما تحذرين حتى أؤوبا أنا في قبضة الإله إذا كنت بعيداً أن كنت منك قريبا فدعيني من انتحابك إني لا أبالي إذا اعتزمتِ النحيبا ? تحبها يا مالك؟ ـ وهل سوى هذا الحب ما يجعلني أشعر بالأسى الآن؟ كان واضحاً لصاحبيه أنه يموت بطء،

Summarized by © lakhasly.com

ولكن الذي أثارهما هو هذا الحرص على نظم الشعر وهو يودع الحياة. من الصعب على أي إنسان أن يقوم برثاء نفسه وهو يموت. قد يفعل ذلك وهو في كامل صحته ووعيه توقعاً ليوم الوفاة، ولكن أن يصر على التفكير بالشعر وبذل الجهد في النظم وهو على فراش الموت، كان مالك بن الريب شاعراً، ولكن لم يحفظ لنا مؤرخو الشعر ودارسوه من شعره الكثير، بل إنه لا يذكر مالك بن الريب إلا ويذكر معه قصيدته التي يرثي بها نفسه.

Summarized by © lakhasly.com